فصارة جريدة ولكنها قريبة

# الحيوان في عصر الآلة

## خطبة رجل من غير التاريخ

الاختراع من أنسفات التي يتميّز بها هذا العصر . ولكن العصر الذي اخترعت فيه الكتابة والعجلات والإبر ، واستنبط السفر والتصبح والنقد كان من اعظم العصور اثراً في التاريخ ، لان تلك المخترعات والمستنبطات وغيرها كانت اوثق صلة بامور التحضّر واركان العمران من المسابيح والسيارات ومثاقب الحديد ومجمّدات الشعور ومطريات الجلود ومذيعات الانباء

خذ مثلاً على ذلك الرجل الذي «اخترع» البقرة . فقد يصعب علينا الآن ان نتصور بيتاً ليس فيه زبادية لبن حليب . ولكن في العصور المتغلغلة في جوف القدم ، كان اصعب على الانسان ان يتصوّر بيتاً فيه لبن حليب ، دع عنك الزجاجة . فقد كان اسهل على الرجل ان يتقدم الى زوجه باقة من الزنابق على ان يأتيها بوعاء من اللبن . وليس ذلك لقلّة اللبن ولكن لتعذّر الحصول عليه . فقد كان هناك فروع طائفة من الحيوانات ولكنها كانت برية شموسة فلا يحاول رجل ان ينتزع منها لبنها الا وبال وباب أدى

عندما ولد عبقري — عبقري جرّب التجارب بالحيوانات كما نجربها نحن بالمواد الكيمائية . وفي ذات مساء طرأ على فكره خاطر عجيب قوامهُ الحصول على اللبن الذي يطلبهُ عند بابه كلّ صباح

كان تحقيق هذا الخاطر من اعسر الامور . أيّ الحيوانات اصلح ما يكون لهذا المسعى ؟ ففي بعض نواحي الارض كان بعض الناس قد جرّب الحيوان المعروف بالكسلان الذهبي . وهو حيوان قبيح الخلقة ، كانوا يحفظونهُ في الكهوف ويحلبونهُ عند الامكان . ولو انهم نجحوا في تجربتهم هذه لحلّ الكسلان في الراجح محل البقر في مروجنا وصور مصوريتا وقصائد شعرائنا

غير ان الكسلان كان لا يصلح لهذا . فهو يصاب في الصيف بامراض جلدية ، ويشتو في الليل ، وفي لبنهِ طعم كريه كأن فيهِ اثراً من السمك . ولو اغتفر الاعتراض عليهِ في الوجوه المتقدمة لهان الامر . ولكن الكسلان كان غير مزواج بل كان يكتفي بزوج واحدة . والتقيّد بزوج واحدة في الحيوانات الزراعية ، ليس في مصلحة الفلاح . فلما تبيّن الاقدمون ان كلّ كسلانة لا بدّ لها من زوج خاص بها ، انصرفوا عن محاولة تربية هذه الحيوانات للحلوب باللبن الذي تدرّهُ انثاها

عند ذلك التفت العبقري الى حيوان نقلي ، لا يبدو على ظاهرهِ انهُ اصلح لهذا الشأن من الكسلان المنبوذ . كان شرساً ، صلب القرون ، يجفل لأتفه الاسباب ، بعيداً في شكلهِ وطبائعهِ

عن البقرة الآلية الآن . ليست تلك الخصائص هي مزايا البقرة . ولكن ذلك الشيء الذي نراه في بعض الحيوان يسمح ان يكون هذه الآلة التي يقتضيها المجهود بالقدر اللازم في كل صباح

هزئ بي الناس وعدوه خيالياً لا يقيم لواقع وزناً . ليت يستطيع ان يصور لهم الحيوان الشرس الشرير ؟ ان البعض من التبن في الارض ، معقول لان التبن لا يتنقل من مكان الى مكان . اما صيد هذا الحيوان حيًّا ثم تأنيسه والتمرن على ركوبه فعمل من وراء القدرة البشرية . انهُ يفرس ويقطع ولا يستقرُّ له قرار . ومع ذلك فان اعتمادنا اليوم في اللبن الذي نشربهُ سخاراً وكثاراً ، ونأكلهُ جبناً مختلف الالوان ، وندخنهُ في صناعات لا حصر لها ، انما يستمدُّ من البقرة التي «اخترعها» ذلك العبقري

وما لبث مفكّر آخر حتى « اخترع » الدجاجة . ذلك انهُ لم يكتفِ بالبحث عن البيض السمار في الحراج ، فاختار طائفة من الطير الجيد البيان ، واقدمهُ بالتربية والعناية بوجر الطراح وسكنى القيطان . و « اخترع » غيرهُ في آسيا الجمل للنقل وآخر الحصان للصدو والاحتمال السريع

قابل بين هذه المخترعات ومخترعاتنا نحن ! ان مخترعاتنا ولا ريب زادت في رفاهيتنا ، ولكنها في الوقت نفسه زادت في متاعبنا . ولو انهُ اتيح لأحد هؤلاء المخترعين القدامى ، ان يزور الارض الآن لأخذ بالعجائب التي اخترعناها . ولأخذ كذلك بالجهد الذي التزم عليه الآن . فاذا يقول قليلاً من هذا المشهد الذي يعجبهُ ويحيره الذهن وقال : انني لا أستطيع ان افهم كيف تستخدمون هذا واماكم على ملكة الحيوان فلماذا لا تختارون منها حيوانات متنوعة ، تثيرونها على ما يلائم كل جانب من العمل المحتوم عليكم ؟ انني لا أفهم لماذا تحصرون هذه الاعمال في الرجال . ومن الحيوان اصناف كثيرة يمكن تسويقها ان تقوم بها ؟

فتأنس قليلاً الى ملاحظة الرجل . ويأنس هو منك هذا الايناس فيمضي في قوله :

« ... ولست ادري ... بل لعلنا كنا في العصور السابقة لزرع منكم بأوسع حيلة . خذ مثلاً على ذلك الضأن . فأنها بعد اختراعنا لها شبكت عن الطريق في الطبائع المطلوبة منها وكثرة تناسلها وزيادة ما تتطاير من الخشنة منها . ولكننا لم نلبث لها ، ولا رضينا بها اسياداً ونحن عبيداً ، «فاخترعنا» كلب الرعاة ليربيها ويحرسها

« ولكني لا أفهمكم تدعون انكم اسرار من قيود التحزب لفكرة سابقة وتضحكون من اسلافكم الذين ينصرون ان يقبلوا البخار مسيراً لعربات الانتقال بدلاً من الخيل . فأضحك من دعواكم هذه . لأنهُ اذا جاء رجل وقال لكم لماذا لا تستعملون الدبة بدلاً من الرجال في تعدين مناجمكم لحكتم منهُ وهزأتم مما يقول . ولكن اذا كان لنا في تلك العصور القديمة ان نأخذ الخيل البرية الشرسة ، ونروضها حتى تتخلى عن بعض طبائعها الشرسة كالرفس والنفر والنفارة فتحولها الى حيوانات مطواعة تحمل اعباءنا وتطيع اشاراتنا — اذا كان لنا ذلك في العصور القديمة فاحر بكم ان تحولوا اللب الى حيوان يعدّن الفحم من دون صعوبة كبيرة

« اني أعلم بانكم لا تستطيعون ان تستعملوه في التمدين كما هو الآن . وانما انظروا اليه نظركم الى السلاح في يد الخرافات . فهو حيوان في عقلهِ ذكاء ، وفي عضلاتهِ قوة . ويستطيع ان يستعمل مخالبه كما يستعمل الانسان يديه . انكم لتستطيعون ان تخلقوا منهُ بالتاسير سيرًا بارعًا في استعمال يديهِ من النوع الحاضر . وهذا اكثر مما وجدناه في الحيوان الذي خلقنا منه البقرة في بعدنا البعيد

« وانما يظهر ان آخر ما تتجه اليهِ انظاركم هو استعمال الحيوان . فاذا وجد احدكم نوعًا جديدًا من الحيوان عاد بنموذج منهُ الى حديقة من حدائق الحيوانات ، او جاء بجلده الى بيته او احدى المتحفات . ولو انكم جربتم في استعمال المعادن على هذه الخطة ، لما كنتم بتعليقها على الجدران او عرضها في المتحفات او تصويرها بالفوتغراف

« وما يحيرني عنايتكم الشديدة بالجوامد ، وانصرافكم عن الاحياء

« للمخترعين ثلاثة ميادين — ميدان الجوامد — وميدان النبات — وميدان الحيوان . فلماذا لا « تخترعون » حيوانات جديدة . فأنتم بحاجة كبيرة الى ما تستطيعون انتراعهُ في هذا الميدان الثالث من ميادين الاختراع ؟

« بل مما يزيد حيرتي ، رضاكم عند القيام بالعمل المضني ، من دون ان يسعى احد لالغائهِ او الاستغناء عنهُ ، بالقائهِ على عواتق الحيوانات التي تخترع لهذا الغرض خاصة . ان مخترعيكم يتعهدون بالغاء العمل ، او تقليلهِ . فما هو السبيل الذي يسلكونهُ الى تحقيق غرضهم ؟ يخترعون آلات جديدة ، تدير من تلقاء نفسها الآلات القديمة ، والآلات الجديدة بسيطة في ادارتها الى الرجال او النساء . فلماذا يجب عليهم ان يخترعوا آلات لا يديرها الا الناس ؟ ولماذا لا يحاولون ان يخترعوا آلات يمكن ان تديرها الحيوانات ؟ او لماذا لا تحاولون ان تخترعوا حيوانات جديدة تصلح لادارة آلاتكم ؟ ولو انكم عشتم في العصر الذي استنبطت فيهِ العجلات ، لما خطر على بالكم — بناء على تصرفكم الآن — ان تستعملوا الخيل لجرّ العربات ، بل لجررتموها بأنفسكم ، او لعلكم تجرونها قرونًا حتى يستنبط البخار فيعفيكم من جرّها على الاطلاق . ولكننا نحن اخترعنا الجياد قبل العربة ، وكذلك البغال والثيران والحمير . فجرّنا العربة ذات العجلات نعمة للناس ، لا لعنة . ان مئات من انواع الحيوان تصلح للاستعمال في آلاتكم ، بالتمرين والترويض والانتخاب التناسلي . ان تطبيع الجياد البرية يستغرق بضعة أسابيع ، ولكن تطبيع الأطفال يستغرق سنين طوالاً . وليس ثمة اي خوف ، من ان ينقلب الحيوان المطبّع فلا يقوم بالعمل الذي تعوّده وتمرّن عليهِ . ولا بدّ ان يجيء يوم يهزأ فيهِ حفدتكم من اسرافكم في اطلاق الحرية للحيوانات القوية الصغيرة ، تنفق وقتها جزافًا في الخراج والبطائح والسهول ، وانتم تعملون حتى كدتم ان تأتوا على نفوسكم بالعمل المضجر المضني ثم تتضرعون من مصيركم » !

كذلك حتم القادم من فجر التاريخ حقيقتهُ في ابناء العصر الحاضر

لم أكن مستعداً باقتراح ذلك الخطيب البليغ ، ورأيت انقلاباً كبيراً قد أتى على مناحينا ومصالحنا . بل رأيت فيه انقلاباً عظيماً في حروبنا . فالحروب اول ما تتأثر بالمخترعات الجديدة . فاذا تعلم اساطيل ان يستعملوا الحيوانات في إعداد الجيوش ، فقدت الحرب ، بعض فظائعها التي يأباها الانسان . كان امر الجند في العهد السابق للانكليز هناك يستعملون الفيلة في الحرب . فلماذا لا تنشىء فرقاً من الخنازير ، تتخصص في الهجوم على الخنادق ، واسراباً من الثعالب لالقاء القنابل من الجو . فالمسألة مسألة تمرين ، ونحن لانستطيع ان نحكم الآن بعد ان نجرب !

او خذ مثلاً آخر . فقد ألّف العالم الاقتصادي البلجيكي — لاميليري La Sillerie — كتاباً قال فيه : ان ملايين من الأفدنة الصالحة لرعي الماشية في الاقطار الباردة الشمالية ، لا تصلح لذلك من الوجهة الاقتصادية ، لأن الأبقار مثلاً تحتاج الى حظائر مدفأة ، وان ما يقتضي بناء هذه الحظائر وتدفئتها من النفقة ، يجعل العمل من الناحية المالية عملاً خاسراً . ولكن هذا القول لم يلتفت اليه كما التفت عند البها الانسان في فجر التاريخ . ذلك انهُ ليس من المحتوم علينا ان نربي الابقار في المناطق الشمالية الباردة لان الابقار من اصل استوائي ويتعذر عليها تحمل البرد الشديد في تلك الاصقاع . ولكن لماذا لا نبحث عن نوع آخر من الماشية يستطيع ان يتحمل البرد . ولعلَّ افضل هذه الحيوانات التي تصلح لمثل هذا الغرض هو ثور المسك . لا ريب في ان ثروة طائلة تدرُّ على الرجل او الجماعة التي تستطيع ان تلائم ثور المسك لاحوال المعيشة هناك فيسهل تكثيره فيها . ولحم ثور المسك لحم جيد ، لا يفوقه لحم البقر ، وصوفهُ ناعم كالكشمير ولا يتقلص عند الغسل . ومع ذلك فانسان هذا العصر لا يفكر ، الاَّ في الصعوبات التي تقوم في وجهه من هذه الناحية . فيقول ان ثور المسك لم يؤنس . وهو على كونهِ حيواناً بريّاً ليس على الاطلاق حيواناً شديد الشراسة

اما تجريب التجارب بتبر المعادن والمركبات الكيمائية ، مع ان التجربة بحيوان ثور المسك ، تنطوي على لذة وفائدة انظر اذا التجارب الكيمائية على الاقل

وما قولك في بعض المراعي الافريقية . ففي هذه المراعي حيوان بري يعرف بالايلند . تأنيسه سهل وطعم لحمه لذيذ . ولكن الناس لم يروا فيهِ الاَّ حيواناً للصيد . فابادوه او كادوا من منطقة واسعة مساحتها تبلغ مئات الالوف من الافدنة . ثم جاؤوا بالابقار والثيران لتعيش هناك فباءت تجربتهم بالخيبة والخسارة . لأن هذه الحيوانات لم تستطع الثبوت في وجوه ذباب تسه تسه

واذا صحَّ ما توقعه منا سلفنا العظيم ، واستعملنا بعض الحيوانات لادارة بعض الآلات ، وجب علينا ان نستنبط وسيلة للتفاهم معها . وهذا امر ميسور اذا عرفنا كيف نعالجهُ . فبدلاً من ان نحاول تعليم الحيوانات النطق يجب علينا — ونحن بارعون في أصول اللغات واساليبها — ان نفهم لغاتها حتى نختصها كيما فيها ونفهمها ما نريد

هذه لمحة خاطفة عن نواحي هذا الموضوع الفتَّان نسوقها للتفكهة والاعتبار في آنٍ واحد